ثورات البربر في العهد الروماني

كانت الإمبراطورية الرومانية في عهدها الأعلى[1] في أوج قوتها ونهاية توسعها، قد ضمت بلاد البربر بأسرها إلى أقاليمها، وأنهت إلى حد كبير التهدئة الحضارية بها، لكن مع هذا لم تسلم من الثورات المتعاقبة. أما في عهدها الأدنى فكانت في صراع مرير مع شعوب مستعمراتها بعد أن ضعف سلطانها، وكان البربر قد أدركوا ذلك وسعوا للتحرر من ربقتها بثورات كثيرة؛ فطبيعة البربري القبلية البدوية عصية عن الطاعة للأجنبي. وكان من أشهر ثوراتهم في العهد الأعلى ثورة تاكفرناس وفي الأدنى ثورة جلدون، ومعهما ثورات كثيرة كثورات: أيدمون (40م)، وسلابوس (41م)، وكييتوس (117م)، والجيتول، والمازيك والباكوات، وأرديون (265م)، وجوليان، وفرموس (372م)، وإغماسن، وغيرهم.

1 – ثورة تاكفرناس والمزالمة (17-24م):

كان تاكفرناس جنديا في الجيش الروماني، ثم هرب منه وشكل جماعة من الثوار، تقول الرواية اللاتينية أنها عاشت عن طريق السرقة والنهب! وتحولت هذه الحركة الصغيرة إلى ثورة عارمة سنة 17م؛ فقد انضمت إليها قبائل بربر المزالمة في ناحية الأوراس الجبلية، وهاجمت الجنود الرومان بنواحيها. ثم تنتشر الثورة في الناحية السيرتية ونواحي الحضنة غربا، ثم تنتقل للانتشار العام ببلاد البربر كلها، بانضمام الثائر الموري "مازيبو" ومعه فرسانه وقبائل الجرميين (Garamantes) لنواحي الفزان، وتتحول الثورة إلى تحالف بربري كبير، ناشدة التخلص من الهيمنة والتسلط الروماني.

حاولت الإمبراطورية التخلص من هذه الثورة، وعينت للمهمة البروقنصل كاملوس (Camilus)، ثم البروقنصل أبرونيوس (Apronius)، ثم البروقنصل بلايسوس (Blaesus)، وكلهم فشلوا في المهمة، لاستراتيجية تاكفرناس في الالتجاء إلى الصحراء عند الهزيمة والعودة إلى الحرب مجددا. إلى أن جاء البروقنصل دولابيلا (Dulabella)، فأحكم تحصين الخطوط الجنوبية للصحراء بمراكز عسكرية، وجلب دعم ملك موريطانيا بطلميوس، ثم قتل شيوخ قبائل المزالمة والجيتول، فحوصر تاكفارناس ومنع من الصحراء ودعم شيوخ القبائل، إلى أن يقع مع بقية جيشه في ناحية "أومال" ليلا ويقتل وتنتهي ثورته سنة 24م.

لقد جيشت ثورة تاكفرناس وراءها القبائل الرعوية الصحراوية، والقبائل الرعوية الجبلية، ممن رفض سياسة الرومنة، التي دفعتها لتخلي عن أراضيها الرعوية، محاولة تحويلها غصبا من حياة البداوة والترحال إلى الحياة الزراعية، التي تجبرها على الاستقرار والخضوع للغازي وحضارته.

---

[1] - يقسم العصر الإمبراطوري الروماني (27-476م) على أربعة عهود: الإمبراطوري الأعلى (27-235م)، الإمبراطوري الأدنى (284-408م)، وبينهما ما يعرف بأزمة القرن الثالث (235-284م)، وأخيرا عصر الانقسام الإمبراطوري (408-476م).

وكان من أهم **نتائج** الثورة أن حاز الملك بطلميوس البربري المترومن لخدمته ودعمه في الحرب الهدايا والتحيات من السيناتو الروماني، كملك حليف وصديق لروما، لكن هذا لم يمنع من اغتياله بعد سنين (40م) من قبل الإمبراطور الروماني كالـڤولا (Caligula) في جريمة سياسية غادرة.

كما كان من نتائجها على مستوى السياسة الرومانية ببلاد المغرب:

ا ـ قيام الأباطرة الفلافيين – تلافيا لمثل هذه الثورات – بإنشاء تحصينات في الحدود الجنوبية للأقاليم البربرية؛ كما قام الأنطونيون في مثل ذلك بإنشاء مقر عسكري في حدود الليمس في "لومبيز"، كمقر دائم للجيش الروماني الإفريقي، الذي نزلت به على الدوام الفرقة الأوغسطية الثالثة.

ب – البداية في تطبيق سياسة فرض استقرار القبائل البدوية الرعوية والنصف رعوية، على مستويات عالية ابتداء من عهد الفلافيين، وذلك بحصرها في مناطق أو محميات محددة الحدود، وبدأت بذلك تظهر حركة تحضير مدني مع استقرار هذه القبائل، وتخليها تدريجيا عن التنظيم القبلي لصالح التنظيم المدني، والذي كان جزء من سياسة الرومنة.

2 – **ثورة القائد جلدون** (397ـ398م):

قُسمت الإمبراطورية بعد تيودسيوس الكبير (Teodosius) على ابنيه هونوريوس و أركاديوس، فحاز أحدهما الشرق والآخر الغرب. وكان جلدون أثناءها أحد القادة الكبار في الجيش الروماني في إفريقيا، ثم أصبح سنة 385م قومس إفريقيا، إلى أن أصبح القائد العسكري للقوات الرومانية الإفريقية، مقيما بقرطاجة مع البروقنصل الحاكم المدني لها. وكان نفوذه كبيرا لدرجة أن طلب منه المساندة منازع الإمبراطور في غاليا، ورغم رفضه إلا أنه لم يقم بالدعم الكافي للإمبراطور.

كانت أولى خطوات جلدون في الثورة ضد الإمبراطور أن قام سنة 395م بمنع إمدادات القمح عن روما، وكان ذلك كافيا لاعتباره إعلان حرب على روما، فيقوم ستلكون (Stilicon) وزير الإمبراطور هنوريوس بإعلانه "Hostis publicus"[2] أي عدوا للشعب الروماني، ولعل جلدون رد على ذلك بإعلان ولائه لإمبراطور الشرق أركاديوس. ويستبق غذر أخيه "مازيسال" بقتل ابنيه، واغتنمت روما ذلك وعينت أخاه قائدا للقوة المكلفة بحرب جلدون (سنة 398م)، وينزل بخمسة آلاف روماني لقتال أخيه الذي كان في ستين ألفا من الرومان والبربر. كانت معركة خاسرة للرومان لولا أن الفيلق الروماني لإفريقيا غير صفه قبيل المعركة وأثناء الالتحام، مما سببا خوف البربر من الخديعة والغدر، فانكشفوا عن قائدهم جلدون، وكانت هزيمته في معكرة "أردااليو" (Ardalio).

فر جلدون إلى الساحل محاولا الحوق بالقسطنطينية، لكن تدفعه الرياح إلى ساحل إفريقيا، ويقع أسيرا بيد أخيه، لكنه يسلم من المحاكمة بخنق نفسه في سجنه كما تذكر الرواية اللاتينية. وينتهي بذلك عهد القائد جلدون ومعه ثورته الفاشلة، ومع هذا لم تكن نهاية أخيه بأحسن حال، إذ كان نصيبه الإغراق في بركة الوزير المذكور وبأمره.

---

[2] ـ أي عدو الشعب، مصطلح ظهر في عهد الجمهورية، وكان يمنح لعدو روما الداخلي أو الخارجي. استعملها السيناتو ضد الإمبراطور نيرون، كما استعملت ضد كل من اعتنق المسيحية أثناء الاضطهاد، وكل كبار الثوار ضد السلطة الرومانية.

كان من **نتائج** نهاية جلدون وحركته: رجوع المغرب من جديد إلى سلطان الإمبراطورية الغربية؛ واستحواذها على التركة الهائلة التي جمعها جلدون؛ ثم ملاحقة من أعانه في حركته، فنالت طائفة الدوناتية حملة كبرى من الاضطهاد ساهم فيها الكاثوليك، وقد سلب وطرد من البلاد كل من ظُنّ فيه الموالاة للثورة، ودامت الحملة عشر سنوات. ووضع المرسوم الإمبراطوري لسنة 399م الذي يمنع منعا باتا ديانة تمجيد الأبطال، إعلانا لنهاية المذاهب الوثنية ببلاد المغرب.

- **الحقيقة من وراء ثورة جلدون**:

اختلف المؤرخون في توصيف ثورة جلدون وصاحبها بين نزعة بربرية ثورية ونزعة رومانية تسلطية؛ فهل كانت استمرارا للاتجاه اليوغرطاني الثائر للتحرر من السيادة الروماني كما يدعيه عمروش وكورتوا؟ أم أن ثورته لم تكن ذات صلة بأصول جلدون البربرية كما يراه لوبولي (*lepellex*)؛ أو أن صاحبها لم يكن لا ثوريا بربريا ولا حاكما استقلاليا رومانيا، وإنما كان يبحث عن دعم نفوذه وتكثير ثروته، مغتنما ضعف الإمبراطورية كما يراه موديران (*Moderon*)؛ أم أنها نزعة استقلالية لأحد قادة الرومان المتسلطين كما يراه رومانيلي (*Romanelli*)؟

- **حجج القول الأول**: احتج أصحاب القول الأول بعدة حجج منها:

أ – شهادة شاعر البلاط الروماني كلوديان (*Clodien*) في نصه الأدبي الحرب الجلدونية "*De Bello Gildonico*"، حيث وصف فيه الثائر بالمتسلط والموري، مع مقارنته بيوغرطان.

ب – ذكر هذا الأديب أنه فيمن ثار معه وشكل عظم جيشه قبائل النازاموس و الجرميون والأوتولوليس، وهي قبائل بربرية بعيدة عن النفوذ الروماني.

ج – نصرة جلدون للطائفة الدوناتية المسيحية في نوميديا، وكان زعيمها أوبتات (*Optat*) من مقربيه، علما أن الدوناتية عند بعض المؤرخين حركة مسيحية بربرية معادية لروما (ثورة دينية).

د – قيامه بقطع تمويل روما من القمح، وتحويل ذلك فيما يبدو للمغرب، وتوزيعه على البربر، في طريق اصلاحاته وترتيباته الاقتصادية الاجتماعية.

- **حجج القول الثاني**: واستدل النافون لثوريته البربرية بـ:

أ – الرواية التاريخية حول الأحداث للمؤرخ أوروزيوس (*Orosiose*)، التي ألفها عشرون سنة بعد الثورة، وأورد فيها روايات عمن عاصرها، على رغم نزعتها الكاثوليكية الإفريقية، والتي لم تذكر نزعته البربرية.

ب – ربط جلدون إفريقيا بالإمبراطورية الشرقية، وذلك لم يكن منه إلا تمويها نحو الاستقلال التام عن روما، وربما كان ذلك لعداوتة الوزير ستلكون، مدير الإمبراطورية الغربية. بل ربما سعيا منه في النهاية إلى طلب اللقب الإمبراطوري، وله سلف في ذلك.

ج – أن البربر لم يكونوا يرون في جلدون صاحب مبادئ بربرية، بدليل تحولهم عنه في أول صدمة مباشرة ضد الجيش الروماني.

د – الطبيعة المترومنة الغالبة عليه، وعلى أسرته من إخوته وحتى ربما من أبيه.

هـ - أن كل حركاته كانت نزاعة لبسط نفوذه الشخصي وتقوية سلطته، فتدرجه في قيادة الجيش، ثم اتباعه استراتيجية أسرية ذكية بزواجه بإحدى النبيلات الرومانيات، ومصاهرته للأسرة

الإمبراطورية، وتحقيقه ثروة هائلة ، وحسن تعامله مع الطائفة الدوناتية في المغرب، وتحقيقه اتصالات مع شيوخ قبائل البربر، وجعلهم تبعا له في حروبه على التقليد الروماني، يشهد لذلك. فهو في النهاية لم يكن قائدا وطنيا له مشروع دولة بربرية، ولا حتى تابعة لروما، بل كان "وصوليا ممتازا" كما يقول موديران.

ومهما يكن من الأمر؛ فإن فإن حركة جلدون كانت مزيجا مزدوجا من الناقمين على حال الإمبراطورية من رومان مغاربة وبربر مترومنين، ونزعة بربرية نحو تصفية الحسابات القديمة والقريبة مع روما؛ على أن الطائفة الأولى سرعان ما عادت إلى مذهبها الأول وخذلت الثائر المتسلط، ولعلها سبب فشله في مشروعه أيا كانت مقاصده.

اهـ.